

من بعده، واشتكى أن امرأته عاقر، أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً، أي: عمراً يندر معه وجود الشهوة والوليد، ﴿فهب لي من لدنك ولياً﴾ وهذه الولاية، ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ أي: عبداً صالحاً ترضاه وتحبه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولداً، ذكراً، صالحاً، يبقى بعد موته، ويكون ولياً من بعده، ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن يرزقه ولداً صالحاً، جامعاً لكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه، واستجاب دعوته، فقال:

﴿٧- ١١﴾ ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً﴾ قال رب أتني بولد صالحاً وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً * قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقنك من قبل ولم تك شيئاً * قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا * أي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماه الله له «يحيى»، وكان اسماً موافقاً لسماء: يحيى حياة حسية، فتم به المنة، ويحيى حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين، ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثلاً ومسامياً، فيكون ذلك بشارة بكماله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم، وموسى، ونوح عليهم السلام، ونحوهم، عن هو أفضل من يحيى قطعاً، فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود الذي طلبه، استغرب وتعجب وقال: ﴿رب أنى يكون لي غلام﴾ والحال أن المانع من

وجود الولد، موجود بي وبيزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد، وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليفة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجادها قبل ولم يكن شيئاً.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾ أي: يطمنن بها قلبي، وليس هذا شكاً في خبر الله، وإنما هو، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ فطلب زيادة العلم، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به، فـ ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمياً﴾ والمعنى واحد، لأنه تارة يعبر بالليلي، وتارة بالأيام ومؤداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا أفة، بل كان سوياً، لا نقص فيه، من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد، ومع هذا، ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والتهليل، والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار﴾ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وأمثلة لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فمكف في محرابه، وخرج على قومه منه فأوحى إليهم، أي: بالإشارة والرمز ﴿أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ لأن البشارة بـ «يحيى» في حق الجميع، مصلحة دينية.

﴿١٢- ١٥﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً﴾ وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً * وبراً

مكشياً وآتيناه قوى عتياً إنا أنزلنا من السماء ماء فأنزلنا به نورا ونحوه ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ أي: خذ الكتاب بقوة ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي: آتيناه الحكم صبياً ﴿وكان تقياً﴾ أي: كان تقياً ﴿وبراً﴾ أي: كان برراً ﴿والله هو السميع العليم﴾

بوالديه ولم يكن جباراً عصياً * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً * دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وترتيبه، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجهد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهيه، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء والفظنة، ما لا يوجد في غيره، ولهذا قال: ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾ أي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه، ﴿و﴾ آتيناه أيضاً ﴿حناناً من لدنا﴾ أي: رحمة ورفقة، تسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

﴿وزكاة﴾ أي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه وتركى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال: ﴿وكان تقياً﴾ أي: فاعلاً للمأمور، تاركاً للمحظور، ومن كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي، ما رتبته الله على التقوى.

﴿و﴾ كان أيضاً ﴿براً بوالديه﴾ أي:

وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع - من أفضل الأعمال.

ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴿فأعاضها الله بعفتها، ولدأ من آيات الله، ورسولاً من رسله، فلما رأى جبريل منها الروح والخيفة، قال: إنما أنا رسول ربك﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾ وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه، فإن الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، واتصافه بالخصال الحميدة، فتعجبت من وجود الولد من غير أب، فقالت: ﴿أني يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ والولد لا يوجد إلا بذلك!! ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها، لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله، فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لثلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها ﴿ورحمة منا﴾ أي: ولنجعله رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة. وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم، أن بعث فيهم رسولاً، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة، ﴿وكان﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أمراً مقضياً﴾ قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل عليه السلام في جيبها.

انتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال: ﴿واذكر في الكتاب الكريم﴾ مريم ﴿عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعها الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين ﴿انتبذت﴾ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مكناً شريعاً﴾ أي: مما يلي الشرق عنهم، ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي: سترأ ومانعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لمريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴿يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ وقوله: ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو: جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له: ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي: ألتجئ به واعتصم برحمته، أن تتلني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي: إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تحويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،



لم يكن عاقاً، ولا مسيئاً إلى أبويه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل.

﴿ولم يكن جباراً عصبياً﴾ أي: لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلهاذا قال: ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن أهل دار السلام، فصولات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦ - ٢١﴾ ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾ قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴿لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف تكلم من كان في المهدي صبياً﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهدي صبي: ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿أتاني الكتاب﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركا أينما كنت﴾ أي: في أي: مكان، وأي: زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالس به، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عبادته، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممثّل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصاني أيضاً، أن أبر والدي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي: متكبراً على الله، مترفعاً على عبادته ﴿مشقياً﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذلاً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، وأنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، ومحمد الخصال قال: ﴿والسلام علي يوم

الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهدي، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينه هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧- ٢٣﴾ ﴿فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرئياً﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك امراً سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف تكلم من كان في المهدي صبياً * قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بالذي لم يجعلني جباراً مشقياً * والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾ أي:

فلما تعلقت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جئت شيئاً فرئياً﴾ أي: عظيماً وخميماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١)، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبوا إليه، وكانوا يستنون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿ما كان أبوك امراً سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي: لم يكن أبوك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون

إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأنت بما لم يأتيها به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الإصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

﴿٢٢- ٢٦﴾ ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً * فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلي واشربي وقري عينا فإنا ترى من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مكاناً قصياً﴾ فلما قرب ولادها، أجاها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألتها ورجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنّت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمانة خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداهما من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، ف﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي: نهرأ تشريين منه، ﴿وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي: طرياً لذيداً نافعاً ﴿فكلي﴾ من التمر، ﴿واشربي﴾ من النهر ﴿وقري عينا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكّل والمشرب والهنّي.

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي: سكوتاً ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام لتستريحي من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدّل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

وأقوالهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا
وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا
موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون
حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا
الضلال، لأنهم بين معاند ضال على
بصيرة، عارف بالحق صادف عنه،
وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من
معرفة الحق والصواب، ولكنه راض
بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله،
غير ساع في معرفة الحق من الباطل،
وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين
كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود
الضمير إلى الأحزاب، لأن من
الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت
الصواب، ووافقت الحق، فقالت في
عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فآمنوا
به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير
داخلين في هذا الوعيد، فلهذا
خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وأنذرهم يوم
الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة
وهم لا يؤمنون﴾ إنا نحن نرث
الأرض ومن عليها وإنا بارجعون﴾
الإندار هو: الإعلام بالخوف على وجه
الترهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما
ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة
حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون
والآخرون في موقف واحد، ويتبع
عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع
رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها،
ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقى
شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر
نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم
ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع
منها الأفتدة، وأي: حسرة أعظم من
فوات رضا الله وجنته، واستحقاق
سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من
الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له
إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟! فهذا
قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في

ربي وربكم﴾ الذي خلقنا، وصورنا،
ونفذ فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له
العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي
هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد
الإلهية، والاستدلال بالأول على
الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط
مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل
إلى الله، لكونه طريق الرسل
وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق
الغبي والضلال.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿فاختلف الأحزاب
من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد
يوم عظيم﴾ أسمع بهم وأبصر يوم
يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال
مبين﴾ لما بين تعالي حال عيسى ابن
مريم الذي لا يُشك فيها ولا يمتري،
أخبر أن الأحزاب، أي: فرق
الضلال، من اليهود والنصارى
وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم
اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن
غال فيه وجاف، فمنهم من قال:
إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله
ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة ومنهم
من لم يجعله رسولاً، بل رماه بأنه ولد
بغبي كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم
باطلة، وأراؤهم فاسدة، مبنية على
الشك والعناد، والأدلة الفاسدة،
والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء
مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا
قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله
ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود
والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر
﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد
يوم القيامة، الذي يشهده الأولون
والآخرون، أهل السماوات وأهل
الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ
بالزلازل والأهوال، المشتمل على
الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا
يخفون ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾
أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك
اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾
أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي
السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم
بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة،
وذلك يقتضي سلامته من الأهوال،
ودار الفجار، وأنه من أهل دار
السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان
باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله
حقاً.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿ذلك عيسى ابن
مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ * ما
كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا
قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون *
وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط
مستقيم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك
الصفات، عيسى ابن مريم، من غير
شك ولا مريبة، بل قول الحق
وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً،
ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر
اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما
قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع
ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله
لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه
يمترون﴾ أي: يشكون فيمارون
بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن
قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو
ثالث ثلاثة، تعالي الله عن إفكهم
وتقولهم علواً كبيراً، ف ﴿ما كان لله أن
يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا
يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة،
لأنه الغني الحميد، المالك لجميع
الممالك، فكيف يتخذ من عباده
ومماليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزه
وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إذا
قضى أمراً﴾ أي: من الأمور الصغار
والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب
﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان
قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي
والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا
كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن
فيكون﴾ فكيف يستعبد إيجاده عيسى
من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسى أنه
عبد مروب كغيره، فقال: ﴿وإن الله

(١) في ب: لا يسعد.



ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية، فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الشناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والافتداء بهم، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾. جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يحظر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة، وشملتهم السكره، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسوله، قد ألهمتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهراتهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها، من أولها إلى آخرها، ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيبث الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

فالصديق: كثير الصديق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه، فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ مهجناً له عبادة الأوثان: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي: لم تعبد أصناماً، ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعبادها نفعاً ولا ضراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي ذاك على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقبح عقلاً وشرعاً. ودل بتنبهه وإشارته، أن الذي يجب ومحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لِي بِسَاتِكَ﴾ أي: يا أبتي لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس

﴿٤١ - ٥٠﴾ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ إذ قال لأبيه يا أبتي لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبتي إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * يا أبتي لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً * يا أبتي إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً * قال أرأيت أنت عن آلهمي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجحك واهجرني ملياً * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان يهفوا * واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً * فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً * وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدقٍ علياً * أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم، فإن ذكرك فيه الأخيار، كانت أصدق الأخبار، وأحقها، وإن ذكرك فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود والوعيد، كان أصدق الأنبياء وأحقها وأدبها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيراً ما يبدى ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم،

عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي: مستقيماً معتدلاً، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا من لطف الخطاب وليته ما لا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبتي أنا عالم، وأنت جاهل» أو: «ليس عندك من العلم شيء»، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فبينني لك أن تتبع الحجة وتتقاد لها.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿لَمْ أَعْهَدِ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ فمن اتبع خطواته، فقد اتخذه ولياً وكان عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتعلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابَ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان فتكون للشيطان ولياً * أي: في الدنيا والآخرة، فتنزّل بمنازله



أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ف **﴿إنه كان بي حفيماً﴾** أي: رحيمًا رؤوفًا بحالي، معتنيًا بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئًا، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله بتابع ملة إبراهيم، فمن اتبع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة^(٢)، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعل.

فلما أيس من قومه وأبيه قال: **﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾** أي: أنتم وأصنامكم **﴿وأدعوري﴾** وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة **﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾** أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيس عن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومآلفه وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراده عن من يتعزز بهم ويتكسر، وكان من ترك شيئًا لله عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: **﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾** من إسحق ويعقوب **﴿جعلنا نبياً﴾** فحصل له هبة هؤلاء الصالحين^(٣) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحيه، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.

﴿ووهبنا لهم﴾ أي: لإبراهيم وابنيه **﴿من رحمتنا﴾** وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، **﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾** وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً للخائفين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب، وفاضت به الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكراهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ **﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً﴾** ونادبناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * **﴿وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾** أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له، والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، **﴿إنه كان مخلصاً﴾** قرئ بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرئ بكسرها، على معنى أنه مخلص لله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه الإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، **﴿وكان رسولا نبياً﴾** أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تفتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من

الذميمة، وترتع في مراتعه الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتساعك إياي، وأنتك إن أطعنتي، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم ناه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: **﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾** فتنجح بألهته [التي هي] ^(١) من الحجر والأصنام، ولا م إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لئن لم تنته﴾ أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله **﴿لأرجمنك﴾** أي: قتلاً بالحجارة **﴿واهجرني ملياً﴾** أي: لا تكلمني زماناً طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: **﴿سلام عليك﴾** أي: ستسلم من خطايي إياك بالشم والسب وبما تكره، **﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً﴾** أي: لا أزال

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من رتبة إلى رتبة.

(٣) في ب: فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾. أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين الآية. وأن بعضهم من ذرية آدم وعن حملنا مع نوح ﴿أي: من ذريته﴾ ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ﴿فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خبروا سجداً وبكياً﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ * إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً * جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً * لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً * تلك الجنة التي تورث من عبادنا من كان تقياً ﴿لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

للموعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] ﴿١﴾ وقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ وفي ذلك ومكّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر منن الله على عبده، وأهلها ﴿٢﴾ من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمال غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم.

﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً * ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي: اذكر في الكتب على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لروحيه، واختياره لرسالته، ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين،

الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إجماع الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وناديته من جانب الطور الأيمن﴾

أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من الأيمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ ﴿وقربناه نجياً﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

وقوله: ﴿وهيئنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحته لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، وهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوّة هارون تابعة لنبوّة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعان عليه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفي به، وهذا شامل

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.

من قرءة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿٦٤﴾ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مأتياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً مكذباً، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحمية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجعية، من الخور والملائكة والولدان، والنفحات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ أي: أرزاقهم من المأكول والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيشماً طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بكرة وعشيا﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورث من عبادتنا من كان تقياً﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا ييغون عنه جَوْلاً، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميّاً ﴿استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو تأتينا أكثر مما تأتينا» - تشوقاً إليه، وتوحشاً

اسمه ﴿الرحمن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحمة، فقال: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً ففي إضافتها إلى رحمة، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية بقاء رحمة، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعده الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه، فأمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكننا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيّاً، ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعبادته، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكننا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدركها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم

المخلصون﴾^(١) المتبعون لمراضي ربهم، المتنبئون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبذلوا ما أمرُوا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمرُوا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفه إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصولها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها.

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازماً أن لا يعاودها، ﴿وأمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يعيدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخلوها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور. ﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

والشياطين ثم لنحضرهم حول جهنم جثياً * ثم لننزعهن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً * أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم ليقات يوم معلوم، * ثم لنحضرهم حول جهنم جثياً * أي: جاثين على ركبهم من شدة الأحوال، وكثرة الزلزال، وفضاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال: * ثم لننزعهن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً * أي: ثم لننزعهن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعُتُو أشدهم عتواً، وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب، الأغلظ إثمًا، فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضاً، ويقول أخراهم لأولاهم: * ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل * وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً * أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب .

﴿٧١ - ٧٢﴾ * وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً * وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعده به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه .

واختلف في معنى الورد، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بَعُد، ينجي الله الثمقين . وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين

بالعقل . أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره مريبوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراذه بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وإفراذه بالعظمة والأسماء الحسنى .

﴿٦٦ - ٦٧﴾ * ويقول الإنسان أإذا مات لسوف أخرج حياً * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً * المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستفهماً على وجه النفي والعناد والكفر - * إذا ما مت لسوف أخرج حياً * . أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء، وعتاده لرسل الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال: * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً * أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً، مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه * .

وفي قوله: * أولا يذكر الإنسان * دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بألطف خطاب، وأن إنكار من أنكر ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك .

﴿٦٨ - ٧٠﴾ * فوربك لنحشرنهم

لنفرأه، وليطمئن قلبه بنزوله - فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: * وما ننزل إلا بأمر ربك * أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدرنا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: * لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون * فنحن عبيد مأمورون، * له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك * أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مديرون، فيبقى الأمر دائراً بين: * هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ * ولهذا قال: * وما كان ربك نسياً * أي: لم يكن الله لينساك ويهملك، كما قال تعالى: * ما ودعك ربك وما قلى * بل لم يزل معتنياً بأمرورك، مجرباً لك على أحسن عوانده الجميلة، وتدبيره الجميلة .

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك ولا يهيك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه * رب السموات والأرض * ورب للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمله، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سُدَى، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلها بما يتفعل ويعود عليك طائله، وهو: عبادة وحده لا شريك له، * واصطبر لعبادته * أي: اصبر نفسك عليها وجاهدتها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعباد عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: * ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنتهم فيه * إلى أن قال: * وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها * الآية . * هل تعلم له سميماً * أي: هل تعلم الله مسامياً ومشابهاً ومائلاً من المخلوقين . وهذا استفهام بمعنى الثقي، المعلوم

برداً وسلاماً. وقيل: الورد، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كُلُّ بحسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿ونذر الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فيها جثياً﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خيراً مقاماً وأحسن ندياً﴾ وكلم أهلكتنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً ﴿أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خيراً من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أي الفريقين﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خيراً مقاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وأحسن ندياً﴾ أي: مجلساً. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خيراً من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

تعالى:

﴿وكم أهلكتنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثاً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أكفركم خيراً من أولكم أم لكم براءة في الزبير﴾؟ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمدده منها، ويزيده فيها جأ، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ ﴿حتى إذا رآوا﴾ أي: القائلون: ﴿أي الفريقين خيراً مقاماً وأحسن ندياً﴾ ﴿ما يوعدون إما العذاب﴾ يقتل أو غيره ﴿وإما الساعة﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، ﴿وأضعف جنداً﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

﴿٧٦﴾ ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا

هدى والباقيات الصالحات خبير عند ربك ثواباً وخيراً مرداً﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخرى، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ليزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ ﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿والباقيات الصالحات﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقرأة، وتسيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خير عند ربك ثواباً وخيراً مرداً﴾ أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه، فإنه ما ثم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧ - ٨٠﴾ ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً﴾ ﴿أطلع



والمرجمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوافد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوافد [إليه] ^(١)، ما هو معلوم، فالتقون يفتدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مرضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الشواب على السنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي: عطاشاً، وهذا أشنع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصفار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم يستغِيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾. وقد أخير أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم

كما ازداد من الغي والضلال، ﴿ونثرته ما يقول﴾ أي: نثرته ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿إم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا * وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم عليهم، وقيضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم ويتشرها، فيسعى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهدته ويحارب عنه، ويمجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطان، وإلا فلور آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾.

﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إنما نعد لهم عدا﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينتجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين،

الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونثرته ما يقول ويأتينا فرداً * أي: أفلا تعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالا وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية - وإن كانت نازلة في كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالا وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه مُتَقَوْل، قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحججة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو؛ إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا له وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون. فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوُّه، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات،

